٤

العيشة بالوكالة

كان طريف ، على اغتباطه بالكلية ، وتعلق قلبه بالعاصمة وحياتها الصاخبة ، دائم التلهف الى مسقط رأسه ، يحن اليه حنين المستيقظ الى حلمه .

فلما انقضى العام الدراسى ، وانتشر الأساتذة والتلاميذ فوق الجبال ، وعلى شطئان البحار ، وفى بطون الأودية والوهاد ، وبين الربى والسهول ، ودع طريف أحبابه ، ومعارفه وانجهنا معا فى القطار الى مجالى طفولتنا وصبانا .

وما ان غادرنا المحطة ، وركبنا المهيع المؤدى الى القرية على الأقدام حتى أومأ إلى بالصمت رجل لا أعرفه ثم أقبل على طريف يصافحه بحرارة من غير ان ينبس ببنت شفة ، فتهلل وجه طريف بشرا ، وصاح مرحبا أهلا بأبى أحمد ، فدهش الرجل ، واندفع يطرى ذكاء طريف ، ومواهبه ، لمعرفته إياه بعد طول السنين ، ولما انصرف بادرته قائلا :

— لا مناص من سؤالك يا طريف .

فقاطعنى قائلا :

— لقد توفرت لدى شتى الأسئلة منذ مغادرتى القرية حتى أن من الفضوليين من لم يتورع عن سؤالى كيف أحسن تناول الطعام ، فلا أضع اللقمة فى أنفى أو ذقنى فهان على بعد هذا الفضول القدم ، كل فضول وأصبحت لا أستسمح سائلا أيا كان لو نه فافض بأسئلتك السخيفة ولو عن كيفية تنفسى .

— قلت عفواً ! عفواً ! ياطريف إن بين الفضول ، والسخافة ، فرقاً وانى وان أكن فضولياً مزعجاً فلست بسخيف .

— قال : « دع هذا وامض فى سؤالك فليس فى العالم سخيف واحد يعترف بسخفه » .

— قلت : كيف كان الأمر فحدثنى كيف عرفت هذا الرجل مع أنه لم يحدثك ، ولم تجتمع اليه منذ أمد .

— قال ومن أعلمك إنى عرفته قبل أن يتحدث .

— قلت لست بأصم ولا ممرور .

— قال : ما عنيت ذلك ، ولكن أؤكد لك أن ما عرفته قط قبل أن يتكلم وكل ما تستغربه هو أن والد صديقنا رشيد أخبرنا أمس حين زارنا فى الكلية بأن نجله أبا أحمد سيأتى المحطة فجر هذا اليوم فخلته هو حين صافحنى وظن هو حين دعوته باسم شبيه أن عرفته ، وأنى لا أرتاب فى أنه سيتحدث عن هـــذه المصادفة الطريفة باعجاب وإكبار ، وأن الذين سيسمعونها منه سوف يشاطرونه [illegible] أدب الجاحظ ، أو شكسبير ، أو دستويفسكى ، وأندادهم من ذوى الأقلام الخالدة ، وأودع وهمه هذا أثرا من آثاره لغدت المصادفة التى جاءت الساعة اتفاقا ، حقيقة خالدة من حقائق التاريخ ، وخارقة مقرونة باسمى أبد الدهر بل ربما استحالت مع الزمن معجزة من معجزات العمى وآية على نبوغ كل كفيف

ويلذ لى ان أنبئك فى هذه المناسبة ، بأن أكثر الخوارق

المنسوبة إلى عباقرة المكفوفين ، لا تعدو فى جوهرها صنو هذه المصادفة . فأى عقل مستنير يستطيع أن يطمئن مثلا إلى تلك القصة الغريبة التى يروونها عن أبى العلاء ويزعمون فيها أنه قال : « ارتفعت الأرض أم انخفضت السماء » لا لشىء إلا لأن جليساً من جلسائه انتهز فرصة قيامه من مقعده فدس تحت طنفسته رقعة من الورق ، إن هذه القصة الذائعة فى مجتمعنا العربى ، إن وقعت ، فانما تدل على أن أبا العلاء سمع خشخشة الورق فداعب جلساءه بما أثار فى نفوسهم الدهشة والاكبار .

على أن طائفة من تلك النوادر ، لا تنبو عن العقل ، ولا تصطدم مع الواقع سوى أنها وإن بدت لك خارقة للعادة فانهـــا ليست كذلك . وما أكثر ما يحدث ما يماثلها للمكفوفين ، ولن أحاول أن أثبت لك ذلك بالحجج ، إذ فى مقدور كل ذى حجة أن يجعل ببلاغته الباطل حقا ، والحق باطلا ، بل عن طريق المشاهدة ، وهى ان لم تكن أوجه السبل فأمثلها بلا ريب ، لتمييز الحق من الباطل .

ولا بأس أن نستهل حديثنا بحقول الذرة البيضاء المنبسطة على جانبي الطريق .

وهنا أخذ طريف يصف تلك الحقول حقلا فحقلا ، ويبين ما طاب منها حملا وما لم يطب ، بيانا لا يقل عن بيان أنبه المبصرين حتى خيل إلى غير مرة أن هواء الوطن ورائحة تربة الآباء ردا إلى عينيه الضياء . ولما دخلت مزرعة نسيب من أنسبائى ، كى أحمل شيئاً من البطيخ والقثاء لنطعم منها فى الطريق ونبترد ، ظل طريف يتابع السير وحده : منحرفا عن الصخور ، وأكوام الحجارة ، ملتويا مع الطريق أنى التوت وتعرجت . وحين هبطنا القرية وتوافد علينا المرحبون ، أخذ يستقبلهم ، ويدعو كلا منهم باسمه سواء فى ذلك من حياه جهاراً ومن اكتفى بمصافحته دون كلام ، ومن لم يحيه ولم يصافحه في بعض الأحيان .

فقلت له إذ خلوت به :

— لعل ماشهدته منك فى الطريق والقرية ليس من لون المصادفة التى كانت هذا الصباح .

قال : « كلا ياصديق إن ظاهر ما رأيت لا يختلف عن باطنه وإلا لكانت حقائق هذا الوجود كلها في اعتبارك سلسلة مصادفات ، وهو ما لا يقره عقل ولا يطمئن اليه وجدان . إن المصادفة في تاريخ الانسان والحياة من الاهمية ما لا تستطيع أن تتصوره أنت ، ولا أنا ، ولا أى إنسان سوانا ، ولكن مما لا يحتمل المرء ، أن المصادفة ليست كل شيء ، ولا علة كل شيء ، فأنا أميز الذرة الجيدة من سواها ، وأساير الطريق فى استقائها وتصريحها كما أميز الناس بعضهم عن بعض .

فقلت وكأنى أسبق من شدة الدهشة لسانه إلى فكره بالله عليك إلا حدثتنى كيف تميز الذرة الجيدة من سواها ؟

قال : وانت كيف تميز الذرة الجيدة من سواها ؟

فقلت متضاحكا : انى أبصرها فأعلم حظها من الجودة والرداءة ؟

قال : وأنا أسمعها فأعلم حظها من الجودة والرداءة ، ذلك بأن الخفيف المنبعث عن تماوج سوقها ، وتدافعها

أمام الرياح والأنسام يختلف باختلاف حملها . فاذا كان حملها طيباً مباركا كان الخفيف ثقيلا على السمع ، وإلا أتى خفيفا ناعما لا يكاد يبلغ الأذن ، حتى يذوب حيالها .

أما الطريق ، فأسايرها فى استقامتها وتعرجها بما للأشياء التى تكتنفنى فيها من هينمة على النفس وضغط على الحواس . يختلفان باختلاف مادتها وكثافتها فلدى الجدران ، والأشجار ، والأبواب والهضاب ، وسائر النواتىء أحس بهينمة ثقيلة وضغط شديد . ولدى أفواه الشوارع والمنعطفات ، والأزقة والمنخفضات ، وسائر الفجوات أحس بهينمة متناهية الضعف وضغط لا يكاد يوجد .

من أجل ذلك تراني دائماً وأنا أمشى منفرداً بطرق الرأس متلفتاً يمنة ويسرة كما ترانى حائراً متحيراً فى الأماكن المزدحمة بالمارة ، والمركبات ، وصفير الرياح . وما ذلك إلا لأنى التمس بأذنى وحسى ما فى طريقى من حواجز ومنعطفات رغبة فى تجنبها أو مسايرتها ، ولأن كل الجلبة عن تستهلك جل تيقظ سمعى ، وتحسسى ، وتصدنى ضبط نظام مشيى .

ولعلك تفطنت مما حدثتك ، إلى أن شجرة أبى العلاء الشهيرة لم تكن إلا أسطورة ، كأسطورة رقعة الورق إذ ما كان لسكفيف مرهف السمع والحس كشيخ المعرة أن يحنى رأسه تحت جرم زالت هينمته بزوال مبعثها ، وإن كان ذاكراً لموطنها الفارق بعد طول السنين كما يقولون : اللهم إلا أن تكون إحدى دعاباته أو دعابة مخترعها .

وأما معرفتى لمن جاء من أهل القرية للترحيب بنا ، فعائد إلى أنى أميز الناس بعضهم عن بعض بأصواتهم أو بأشكال أكفهم أو تنفسهم ، إلا أن أيسر الحالات لمعرفتهم هو ذلك الصوت الذى يتخذ الألفاظ والتعابير اللغوية أداة للاعراب عن مقاصدهم ، وأؤكد لك لو أن أبا أحمد الذى التقيناه هذا الصباح والذى عرفته فى قرية المدعوين اخوة أمى — بادرنى بالتحية كما تقضى اللياقة عليه مع أمثالى لما عزت على معرفته ولو أنافت غيبته عنى على غيبة المنادى عن أبى العلاء .

— قلت : لا ريب أنك نادرة ياطريف !

قال : « بل فتى يا صديقى كفت الأيام عينيه عن العمل فنابت عنهما أذناه ولمسه ؛ إن تعرف نفسك الى الناس والأشياء ، يقوم بالأشكال ، والألوان ، ووسيلتك العظمى الى ذلك عيناك ، أما أنا فأستعيض الأصوات عن الألوان ، وتتعرف نفسى الى الكائنات بما ينبعث عنها من اهتزازات كالكلام ، والحفيف ، والتنفس ، ووقع الأقدام ، فالصوت عندى كالضياء عندك ، مفتاح التعرف والسبيل الأهم الذى به اتصل بالوجود ، فأميز أسامة من هيثم ، وهيثم من شادية ، وهو الذى به أفرق بين الحسن والردىء من الذرة البيضاء والصفراء وسائر الحبوب القائمة على سوق مرتفعة . وهو الذى به أمشى كالسهم وحدى ، فى مناكب الأرض غير متكئ به على محجن ولا مستعين إلا بالله وحسى وأذنى المرهفتين اللتين هما عندى وعندكل كفيف عينان بالوكالة .